رحلة عبد العزيز الستاموني

بين عيادات الأطباء

كانت رحلة عبد العزيز الستاموني بين عيادات الأطباء التي تكللت بكارثة، رحلة خارقة بحق، لم يكن أحد ليصدق أنها ستنتهي بهذه النهاية الرجيمة! ومرد ذلك أنه كان يتردد منذ ثماني سنوات بين العيادات الخاصة، والمشافي، بغية العثور على علاجٍ لكربٍ غامض ألم ببدنه دون جدوى .

وكان الستاموني قد شارك في الاعتصام السياسي الذي عرف باسم اعتصام "روبا" لمدة أسبوع متقطع؛ فلم يكن ذهابه متواصلاً بسبب حالته الصحية الغريبة. وكان الرئيس "شي شي" قد أصدر أوامره بقتل جميع المعتصمين ذات صباح والنشوة تغمره! وتصادف أن كان الستاموني هناك في هذا اليوم بالذات، لكنه أفلت من الموت بأعجوبة !

ومع أنه قد عاد من هناك سليمًا معافى تمامًا، لم يمسه خدشٌ واحد، وهذا في حد ذاته هو أمرٌ خارق وأشبه بمعجزة ! إلا أن صحته المتهالكة قد تدهورت مزيدًا من التدهور منذ ذاك اليوم! ولكن، مهلاً، لنبدأ قصة الستاموني منذ بدايتها!

منذ ما يزيد على السبع سنوات بقليل، كان عبد العزيز الستاموني يغط في نوم عميق هانئًا بنومه ذات ليلة صافية هادئة، إلا أنه ولسوء الحظ قد استيقظ على ألمٍ مباغت ينخر في رقبته. كان الألم فظيعًا، لدرجة أنه قد استغرق وقتًا طويلاً حتى قام من فراشه بصعوبة، لكنه عندما ذهب ليغسل وجهه، ويقضي حاجته كعادة الناس جميعًا في الصباح، كانت صدمته كبيرة عندما نظر لنفسه في المرآة.

كانت رقبة الستاموني ملوية بإحكام تجاه اليمين، وكان يبدو أنها ستثبت على هذا الوضع دون أن تحب تغييره! وهذا ما أصابه بالفزع، ومحاولة تعديل وضعها، إلا أن محاولاته الحثيثة كانت مميتة ومؤلمة للغاية، وهذا ما جعله يتراجع عنها في ثوانٍ معدودة !

وبدلاً من ذلك، شرع يتفحص بإصبعه برفق هذا الجزء المختبئ عن النظر من الرقبة نتيجة ميله الشديد نحو اليمين، كان هناك ما يشبه العجينة تحت الجلد، فقاعة كبيرة متكتلة، ربما كانت تحمل ورمًا أو كمية كبيرة من الصديد اللزج المتصخر !

وهرع الستاموني نحو زوجته الكسولة ليوقظها، ويخبرها بما ألم به. وكانت صدمة الزوجة كبيرة أيضًا من هذا المنظر، إلا أنها نصحت زوجها قائلة: يا زوجي العزيز، ألف سلامة عليك، لكني أرى أنّ هذا هو مجرد شد عضلي رجيم من البرد!، ولا بد من ذهابك إلى أخصائي علاج طبيعي يتقن التعامل مع مثل هذه الحالات.

فأومأ الستاموني برأسه متألمًا، ومضى من فوره إلى هذا الأخصائي، وقد ارتدى ملابسه بصعوبة على عجل.

استمع الأخصائي إلى شكوى الستاموني، ثم بدأ من فوره اللت والعجن، والهرس والدهس، معملاً أصابعه وأجهزته في رقبته، وكلما مرت بضع دقائق كان يوجه له هذا السؤال مزهوًا: هه، كيف حالك الآن؟ أفضل أليس كذلك؟!!

وخُيل للستاموني، لشدة إلحاح هذا الأخصائي بأنّ الأمر قد بات أفضل حقًا، وهكذا مضى شاكرًا غير ساخط إلى بيته.

وقد عزم على الامتثال لنصيحة الأخصائي، وساعدته زوجته في ذلك فملأت أكياسًا صغيره بالمياه الساخنة، ووضعتها على الجزء الملتهب في رقبته، ومضى الأمر على هذا المنوال لساعاتٍ عديدة، لكن الألم لم يكن يخفت أو يتوقف، بل على العكس، ازداد الأمر سوءًا، وتحسس الستاموني مكان الألم مرة أخرى فشعر بأن الكتلة المتورمة قد تمددت بالحرارة ولم تنكمش! وهذا ما جعله يلعن الأخصائي والساعة التي ذهب فيها إليه! وتفتق ذهنه عن فكرة ظنّها مفيدة، فأمر زوجته بأن تُحضر له مكعبات من الثلج، ولكن هذه المكعبات لم تغنِ من الألم شيئًا.

مضت أيام على هذا النحو، ولم يعرف الستاموني إلى أين يذهب! خصوصًا بعد أن أجمع الأصدقاء والأقرباء، القاصي منهم والداني، على أنّ الحالة تستدعي علاجًا طبيعيًا لا شيء آخر، إلا أن هذا العلاج لم يفلح معها. ولم تنجح الدهانات الكثيرة التي لطخ بها رقبته صباحًا ومساءً، في تخفيف شيء من الألم أو كبح جماح مصدره.

غير أنّ أمرا غير متوقع قد حدث للستاموني على حين فجأة، فقد اختفى الألم كله ذات ليلة، هكذا، دفعةً واحدة، واعتدلت رقبته منتصبة في شمم لشد ما تعجب له هو شخصيًا! فحمد الله على كل حال حمدًا كثيرًا مباركًا شاكرًا فضله، ولكن هذه الراحة لم تستمر طويلاً؛ فسرعان ما عادت الرقبة اللعينة إلى ما كانت عليه بعد يوم واحد! الأمر الذي أدهش الستاموني وكدره، وقد اغتمت زوجته كثيرًا، حتى نصحه أحد الأصدقاء بالذهاب إلى طبيب "أنف وأذن وحنجرة"، ولم يُكذب الستاموني نصيحة، فقد كان كالغريق الذي يتعلق بقشة، فانطلق إلى هذا الطبيب وهو يسأل الله من كل قلبه أن يفرج أزمته، ويفك كربه. أخبره الطبيب أنه مصاب بالتهاب في الغدد اللمفاوية من نوع T.

لقد تسارعت الأحداثُ كثيرًا بعد ذلك حتى أنه لم يعد يستطيع أن يلاحق أنفاسه! فبعد شفاء رقبته، أصابته آلام شديدة في البطن، وإرهاق جسدي عظيم، جعله يتخيل كل ليلة أنه سيكون جثة هامدة في الصباح، ورغم ذلك فقد بقي حيًا! وتتالت رحلاته نحو عيادات الأطباء. قال الدكتور شوكت بعد أن طلب بعض التحاليل المهمة: الـ A.S.O عالٍ جدًا، وكذلك سرعة الترسيب، هذا يعني إصابتك بحمى روماتيزمية مؤكدة، إلا أن أعراضها لا تبدو عليك! ونصحه أن يأخذ حقن البنسلين طويل المفعول في الشتاء، ثم يوقفها في الربيع، ثم يأخذها في الصيف، ليتخلى عنها في الخريف!

كان الدكتور عثمان، وهو طبيب قريب للستاموني من جهة أمه، يعلم جيدًا أن الجرعة التي توصف للعلاج من هذا المرض، لا توصف على هذا النحو المتلجلج، وهكذا نصحه بالذهاب إلى طبيبٍ آخر.

قال الدكتور عبد الرحمن عن كلام الدكتور شوكت: كلام فارغ! ثم أنّ هذا التحليل لا يدل بالضرورة على وجود هذه الحمى، وإنما على وجود عدوى بالجسم. وهكذا طلب تحاليل أخرى: حمى بحر متوسط، مرض الذئبة الحمراء، غدة درقية. ولكن دون جدوى.

بعد ذلك، أُصيب الستاموني بجديري مائي، لقد كان جهازه المناعي يتداعى بحق، واستمرت رحلاته للأطباء، لكنه عندما شُفي من الجديري عاودته آلام البطن الحادة، كما انتابته بين الحين والآخر التهابات بولية شديدة. أجرى تحاليل السل، والتيفود، ومرض القطط، وغيرها الكثير. لم يترك تحليلاً على وجه الكرة الطبية، إلا وأجراه دون فائدة؛ وظائف كلى، وظائف كبد، بلى أزرق!

بعد عدة سنوات، ذهب إلى الدكتور علاء، والذي أخذ بدوره يصيح كالمصروع، وهو يضرب كفًا بكف حول حماقة كل الأطباء السابقين الذين

ذهب إليهم الستاموني؛ لقد أخبره بوضوح أن الزائدة الدودية ملتهبة أكثر من اللازم، وأنها ظلت ملتهبة لسنوات حتى تحجرت، وكان من الممكن لولا العناية الإلهية وحدها أن تنفجر في أية لحظة، وأنه بمجرد تخلصه منها، ستنتهي كل معاناته! وهكذا أجرى الستاموني عملية استئصال الزائدة الدودية. هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟ كلا، لم ينتهِ!

لقد احتفظ جسد الستاموني بعد ذلك بآلام متفرقة مفاجئة، ووخزات حادة، ودوخة مفرطة، وفقدان مفاجئ للتوازن، وتنميل مع شعور بضعف في الأطراف و... !

كانت كل تحاليل الدم تشير إلى عدم وجود أنيميا أو نقص فيتامينات يؤدي إلى ظهور هذه الأعراض. لقد انتهى الأمر بالستاموني إلى الوصول لعيادة طبيب نفسي بعد أن استنفذ كل المحاولات، وجل حيلته من أموال مع أطباء الباطنة، والكلى، والقلب، والعظام، و...، بعد أن أصيب مؤخرًا بنوبات هلع ليلية. وهذا ما جعله يهرع إلى طبيب نفسي، معتقدًا أن شفاءه سيكون على يديه.

أخبرته الطبيبة اعتماد إذن أنه مصابٌ باضطراب الجسدنة. وهو اضراب نفسي جسدي، يأتي قبل سن الثلاثين، ويستمر لسنوات طويلة، يهرع المريض خلالها إلى كافة الأطباء العضويين، معتقدًا أنّ بجسده علة ما، دون أن تكون هناك علة حقيقية! إلا أن الشعور بالألم، والإرهاق، وبعض الاضطرابات الهضمية والجنسية، وبعض الأعراض العضوية يكون حقيقيًا. ويأتي هذا المرض مصحوبًا أحيانًا باضطراب القلق أو الاكتئاب. وهكذا بدأت في تحليل مرض الستاموني بدقة، متخذة من أعراضه الوسيلة، هل تعاني من صداع؟

... -

كم درجة تعطي لوجود ألم في المعدة: 4،3،2،1؟ وهلم جرا... مجموع الدرجات 19، "الأعراض العضوية بسيطة!" وكتبت له دواءين.

مضى الستاموني ذلك اليوم هائمًا على وجهه يبحث عن هذين الدوائين في جميع الصيدليات. وبعد معاناةٍ عسيرة مع تليفون الطبيبة أخبرته باستبدالهما بآخر.

مساءً، فتح شبكة الإنترنت، كتب اسم الدواء الأخير ليفهم ما هو؟ مضاد للاكتئاب، الأعراض الجانبية بلاوي لا تحتمل، الإدمان يحدث سريعًا ! وقرأ أكثر عن حالته وعلاجها، "في بعض الحالات يعطي الأطباء مضادات الاكتئاب لمرضى الجسدنة، بغية تحسين المزاج وتخفيف الشعور بالإرهاق، إلا أنّ معظم المرضى يتوقفون عنها بسبب أعراضها الجانبية، كما أنّ نتيجتها الشفائية محدودة!" قالت له اعتماد: الأمر بحاجة إلى شهور.

وشعر الستاموني أنه سيفقد عقله تمامًا خصوصًا مع نوبات الهلع المتفرعة عن اضطراب القلق المصاحب للجسدنة، ليس بوسعه أن ينتظر شهورًا! وتذكر فجأة أنه ذهب إلى أطباء كثر، لقد زار تقريبًا جميع التخصصات، إلا أنه لم يذهب إلى طبيب مخ وأعصاب بعد، وهذا ما جعله يأمل أن تكون العلة عضوية من جديد، فيكتب لها دواء وينتهي الأمر!

وهرع من فوره إلى "فريد المنصوري خشب" أشهر طبيب مخ وأعصاب في مدينته. إنّ قصة الستاموني تقترب الآن من نهايتها المريعة! ولكن يجب أن نذكر للدقة والأمانة، أنّ الستاموني بوصفه شابًا مثقفًا، من ثم فقد رفض إلحاحات والدته بالذهاب إلى دجالين، وشيوخ معالجة قرآن، وهلم جرا... لقد كان رجلاً مؤمنًا بالطب والعلم، لا يعتقد في سحر أو حسد.

وكانت سحنته تشبه القرد، إلا أنه وبشكل حقيقي كان في عين أمه غزالاً! وكانت أخلاقه حسنة رغم سحنته القبيحة. ولهذا قالت الأم: يا بني، أنت محسود على جمالك، ودلالك، وحسن أخلاقك!

إنّ عيادة فريد المنصوري تغص بالمرضى، الذين تراوحت مناظرهم بين المرعبة والعادية. فمن رجل تتحرك يداه وقدماه وعيناه حركات لا إرادية مزعجة لعين الرائي، إلى امرأة تولول من ألمٍ حاد في ساقها، إلى أخرى جالسة في هدوء لا تشكو من عرض ظاهر، وإلى آخر تبدو على وجهه أمارات غير طبيعية، وتبدو نظراته هائمة تائهة! شعر الستاموني أنه سليم وسط كل هؤلاء، وأنه لا بد جاء إلى هنا عن طريق الخطأ، وعزم في بعض اللحظات أن يتقهقر إلا أنه تراجع عن عزمه!

وبعد ساعات من الانتظار امتدت إلى قرب منتصف الليل، جاء دوره أخيرًا مع قرب إقفال العيادة. واستقبله خشب بالترحاب، إلا أنه أمطره بعد معرفة الأعراض بوابلٍ لا حد، ولا معنى له من الأسئلة الخاصة:

- مخلص ولا طالب؟

- مخلص من كذا سنة.

- وبتشتغل بقى؟

- لا والله لسه، ما انت عارف يا دكتور ظروف البلد. وقهقه المنصوري دون داعٍ قائلاً: لأ، مش عارف، أنا عايزك أنت تقول لي!

فضحك الستاموني ضحكة قصيرة وقال: أنا عارف ان حضرتك شايف البلد كويسة أو هتبقى كويسة قريب.

كان الستاموني قد لاحظ جيدًا صورة الرئيس "شي شي" الموضوعة بعناية في صالة الاستقبال، فوق بوكيه من الورد البلدي، الذي اكتشفت السيدة الجالسة إلى جواره أن بلديته مزيفة رغم أنه يحمل مظهرها تمامًا! لكنه كان رجلاً عاقلاً، ولهذا رفض أن يذهب عقله بعيدًا، واعتبر أنها فرصة مواتية، لمناقرة خفيفة ممتعة، مع شخص يختلف معه في الفكر. خصوصًا وأنه طبيب "ألصق المهن البشرية بالإنسانية والرحمة فوق وجه الأرض" حسب ما كان يعتقد.

فاسترسل معه في الحديث والمناقشة دون توقف.

- بابا بيشتغل إيه يا عبد العزيز؟

- مهندس.

- مهندس إيه بقى؟

- مهندس مدني.

- وبيشتغل فين بقى؟

- في مشروع...

- طب وقاعد معاكم ولا بيروح ويجي؟

- لا، قاعد معانا.

وشعر للحظة أنه في جلسة تحقيق! وابتسم من هذا الخاطر العبثي الذي خطر له. كان الدكتور خشب يسأل أسئلة كثيرة جدًا لا داعي لأن

تسألها لمريض. ويهتم بالتفاصيل الدقيقة، من يراه على هذه الحالة يظن أنه مصاب بمرض الفضول المطلق!

- طب وانتوا ساكنين فين بقى؟

- في...

ابتسم خشب: آه، وقلت لي بقى كنت بتروح روبا؟!
- مش علطول، أنا ما كنتش قاعد هناك يعني، كنت بروح وآجي.
- آه، ورحت كم مرة على كده؟

- يعني، كذا مرة كده، بتاع ست سبع مرات.

وأخيرًا، قال المنصوري بابتسامة مريبة: يوجد نقص في فيتامين ب12، كما يجدر بك أن تتناول أوميجا3.

وأوجس الستاموني خيفة وهو يخرج من الباب، لقد شعر أنه قد وقع في الفخ! ومضى إلى بيته لا يلوي على اطمئنان، وأخذ يرتعد في فراشه. كان من الممكن أن يرتعد في فراشه حتى الصباح، لكنهم جاؤوا وأخذوه في الفجر، أما بقية الحكاية، فأنتم تعرفونها جيدًا!